KNM-BSA
Konferensi Nasional Mahasiswa
Bahasa dan Sastra Arab - 2026

رمزية المحبة الإلهية والتجربة الصوفية في شعر رابعة العدوية:

(دراسة سيميائية وفق نظرية مايكل ريفاتير)

Saifullah Muhammad Jafar, Nasikul Mustofa Efendi, Muhammad Bachrul Ulum

Prodi Bahasa dan Satra Arab, Fakultas Adab dan Humaniora, Universitas Islam Negeri Sunan Ampel Surabaya

Ipung9383@gmail.com, nasikulmustofa@uinsa.ac.id, bachrul.ulum@uinsa.ac.id,

الملخص

تناولت هذه الدراسة رمزية المحبة الإلهية في التجربة الصوفية من خلال أشعار رابعة العدوية، معتمدة على المنهج السيميائي لمايكل ريفاتير. ينطلق البحث من إشكالية أساسية مؤداها أن لغة التصوف تتجاوز المعاني المعجمية المباشرة، وتلامس آفاقاً روحية تعجز اللغة العادية عن استيعابها، مما يستدعي أدوات تحليلية قادرة على تفكيك هذه الشفرات. ويهدف البحث إلى استكشاف المضامين الروحية والدلالات التأويلية الكامنة خلف الألفاظ الشاعرية التي وظفتها رابعة، وبيان كيفية تحول اللغة من وظيفتها التواصلية التقريرية إلى وظيفة سيميائية مكثفة. وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي عبر تطبيق مستويات التحليل الريفاتيرية: القراءة الهيورستيكية (الاستكشافية)، ورصد الانزياحات وعدم اللياقة النحوية، ثم القراءة الهيرمينوطيقية (التأويلية) لاستخراج المصفوفة والنموذج والمتغيرات والهيبوجرام.

وتوصلت الدراسة إلى أن النصوص الشعرية المنسوبة إلى رابعة العدوية، على تعدد صورها وتباين ألفاظها، تشكل منظومة سيميائية متكاملة تنبثق من مصفوفة مركزية واحدة هي التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية. وتتفرع عن هذه المصفوفة نماذج ومتغيرات دلالية تعيد إنتاجها بأساليب بلاغية متنوعة، بحيث لا تعمل الرموز الصوفية عندها من قبيل الخمر والحجاب والهوى بمعزل عن بعضها، بل تتحول داخل النص إلى علامات سيميائية منسجمة تشير إلى مراتب الوجد والتجلي. كما كشفت الدراسة عن علاقات تناصية (هيبوجرامية) مع نصوص قرآنية وتراثية سابقة، مما يؤكد أن لغة رابعة الشعرية تمثل انقلاباً سيميائياً في مسار التصوف الإسلامي، حيث تتحول اللغة من التقرير إلى الإشارة، ومن المباشر إلى الرمز، ومن الخوف والطمع إلى محبة خالصة لا تطلب عوضاً ولا تخشى عقاباً.

الكلمات المفتاحية: المحبة الإلهية؛رابعة العدوية؛ السيميائية; مايكل ريفاتير

.المقدمة

شهد القرن الثاني الهجري تحولاً جذرياً وعميقاً في مسار الحياة الروحية الإسلامية، حيث بدأت ملامح التصوف الإسلامي تتشكل تدريجياً استجابةً للظروف الاجتماعية والسياسية المعقدة التي سادت في تلك الحقبة. في البدايات الأولى، غلب على طابع التدين العميق طابع الزهد والنسك، والذي كان متأثراً بشكل كبير بمفاهيم الخوف (الخوف من عذاب الله) والرجاء (الطمع في ثوابه ومغفرته). وكان الحسن البصري في مدينة البصرة هو الممثل الأبرز لهذا الاتجاه، حيث طغت على مواعظه وتوجيهاته مسحة من الحزن والرهبة من الآخرة. استمر هذا النهج الزهدي المبين على الخوف مسيطراً على أوساط النساك والعباد، حتى ظهر صوت جديد من قلب البصرة ذاتها، ليحدث انقلاباً مفهومياً في العلاقة بين الخالق والمخلوق. هذا الصوت هو صوت رابعة العدوية، التي انتقلت بالتجربة الروحية من مقام الزهد الجاف والخوف المحض إلى رحاب "المحبة الإلهية" الخالصة.

لم تكن رابعة العدوية مجرد زاهدة منقطعة للعبادة، بل كانت رائدة مدرسة العشق الإلهي التي أسست لمرحلة جديدة في تاريخ التصوف الإسلامي. لقد عاشت رابعة في بيئة مليئة بالتناقضات، حيث الرف المادي الناجت عن الفتوحات الإسلامية يقابله فقر مدقع وتهميش اجتماعي، وهي التي عانت من العبودية والقهر قبل أن تُعتق وتتفرغ لحياتها الروحية. في هذا السياق القاسي، لم تبحث رابعة عن خلاصها الروحي من خلال الخوف من الجحيم، بل وجدته في الحب الخالص لله، حباً لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً. وللتعبير عن هذه التجربة الوجدانية العميقة، كان لا بد لها من تجاوز اللغة اليومية التقريرية التي تعجز بطبيعتها عن احتواء المطلق، فلجأت إلى لغة الشعر المليئة بالرموز والإشارات.

ومع ذلك، تواجه دراسة شعر رابعة العدوية إشكالية تاريخية وتوثيقية لا يمكن إغفالها. فالتراث الشعري المنسوب إليها لم يُدون في عصرها بشكل منهجي، بل تناقلته الألسن عبر الروايات الشفوية قبل أن يُسجل لاحقاً في المصادر المتأخرة مثل "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني و"إحياء علوم الدين" للغزالي. أدى هذا البعد الزمني إلى ظهور تباين في الروايات واختلاط بعض أشعارها بأشعار صوفيات أخر يحملن نفس الاسم، مثل رابعة بنت إسماعيل الشامية. ورغم هذا الخلاف حول الموثوقية التاريخية الصارمة لبعض الأبيات، يرى الباحث أن القيمة الحقيقية لهذه النصوص لا تكمن فقط في الإسناد التاريخي المادي، بل في كونها تمثل نواة صلبة لـ"نموذج رابعة" كرمز للمحبة الإلهية في الذاكرة الصوفية الجماعية، وهو ما يجعلها مادة خصبة للتحليل الأدبي والسيميائي.

إن اللغة التي استخدمتها رابعة، أو التي نُسبت إليها لتعبر عن حالها، هي لغة مفارقة للعادة. فالتجربة الصوفية بطبيعتها تجربة صامتة، وعندما يحاول المتصوف البوح بها، فإنه يصطدم بقصور دوال اللغة عن الإحاطة بمدلولات التجربة. وهنا تبرز الحاجة إلى استخدام الرمز (الرمز الصوفي) الذي يكسر أفق التوقع لدى المتلقي العادي. لقد استخدمت رابعة مفردات مأخوذة من قاموس الغزل البشري المادي، مثل "الهوى" و"الكأس" و"الوصل"، لكنها شحنتها بدلالات روحية مفارقة. هذا الانزياح الدلالي يجعل من المقاربات اللغوية التقليدية، التي تقف عند حدود النحو والبلاغة المعيارية، قاصرة عن إدراك العمق الحقيقي للنص الشعري الصوفي.

الإطار النظري والدراسات السابقة

السياق التاريخي والروحي للتصوف عند رابعة العدوية

لم تكن تجربة رابعة العدوية الروحية حدثاً معزولاً عن سياقه التاريخي، بل كانت نقطة تحول مفصلية في تاريخ الفكر الصوفي الإسلامي. في القرن الثاني الهجري، كانت مدينة البصرة مركزاً حيوياً للحرَاك الفكري والديني، وشهدت ظهور حركة زهدية قوية تزعمها الحسن البصري (ت. ١١٠ هـ). اعتمد هذا الزهد المبكر بشكل أساسي على دافعي "الخوف" من العذاب الإلهي و"الرجاء" في الثواب والجنة .كان الخطاب الزهدي في تلك الفترة يركز على قصَر الأمل، وبكاء الذنوب، والتزهيد في الدنيا خوفاً من أهوال يوم القيامة.

في وسط هذه البيئة المشحونة بالرهبة والخشية، جاءت رابعة العدوية (ت. ١٨٥ هـ/ ٨٠١ م) لتقدم رؤية روحية جديدة ترتكز على "المحبة الإلهية الخالصة (Mahabbah) "بوصفها المحرك الأساسي للعبادة والسلوك الروحي, عاشت رابعة حياة قاسية تمثلت في الفقر والرق والعبودية قبل أن تُعتق وتتفرغ للنسك والتأمل، مما جعل تجربتها الروحية تتشكل في معزل عن المطامع الدنيوية والمكاسب المادية بدوي، رفضت رابعة المنطق التجاري في العبادة أي القيام بالعبادات طمعاً في الجنة أو خوفاً من النار وأرست مبدأ الحب لذات المحبوب، وهو المبدأ الذي عبرت عنه في أرق أشعارها وأقوالها المأثورة.

تطرح نسبة الشعر إلى رابعة العدوية إشكالية منهجية وتاريخية نوقشت باستفاضة في المصادر التراثية والدراسات الحديثة. لم يقم معاصرو رابعة بتدوين أشعارها في ديوان مستقل، بل جاءت مدونة في مصادر متأخرة مثل "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني، و"إحياء علوم الدين" للغزالي، و"صفة الصفوة" لابن الجوزي. أدى هذا التدوين المتأخر إلى تباين الروايات وتداخل الأبيات المنسوبة إليها مع أشعار صوفيات أخريات يحملن الاسم نفسه، مثل رابعة بنت إسماعيل الشامية ويرى بعض المؤرخين أن جزءاً من الأشعار المنسوبة إليها قد يكون صياغات لاحقة أضافها مريدوها لتجسيد حالها الروحي. ومع ذلك، يرى الباحث أن هذه الإشكالية التاريخية لا تنقص من القيمة السيميائية للنصوص؛ فالنص الشعري الصوفي عند تحليله سيميائياً يُتعامل معه بوصفه بنية بنيوية ودلالية قائمة بذاتها تعبر عن "نموذج رابعة" المرجعي في المتخيل الصوفي، بصرف النظر عن موثوقية السند التاريخي لكل حرف.

الإطار النظري: سيميائية مايكل ريفاتير

لقد طور مايكل ريفاتير (Michael Riffaterre) نظريته السيميائية في كتابه (ريفاتير، ١٩٧٨) يرى أن الشعر ليس تعبيراً مباشراً عن الأفكار , بل هو نظام من العلامات والرموز المتفاعلة التي تولد طبقات متعددة من المعنى .ويؤكد ريفاتير أن القراء الأكفاء يذهبون إلى ما هو أبعد من المعنى السطحي، فيتجاوزون الدلالة الحرفية للكلمات للوصول إلى البنية العميقة التي تحكم النص .وتقوم نظريته على فرضية أساسية مفادها أن الشعر يعتمد على "عدم المباشرة" (Indirection)في التعبير عن المعنى. ولتحليل هذه البنية العميقة، يقترح ريفاتير مستويين من القراءة: القراءة الهيورستيكية (الاستكشافية) التي تتوقف عند المعنى اللغوي المباشر، والقراءة الهيرمينوطيقية (التأويلية) التي تسعى إلى تفكيك الانزياحات واستخراج الدلالات الرمزية. ومن خلال هذين المستويين، يمكن للباحث أن يصل إلى المفاهيم المركزية الأربعة: المصفوفة (Matrix) التي تمثل النواة الدلالية المجردة غير المصرح بها، والنموذج (Model) الذي يجسد هذه

المصفوفة على السطح اللغوي، والمتغيرات (Variants) التي تعيد إنتاج النموذج بأشكال بلاغية متنوعة، والهيبوجرام (Hypogram)الذي يمثل النصوص السابقة أو المتضمنة التي يتناص معها النص الشعري.

تبرز أهمية هذه النظرية في كونها أداة تحليلية فعالة للكشف عن الرموز والشفرات في النص الشعري، خاصة النصوص التي تتسم بالغموض والكثافة الدلالية .وقد أثبتت الدراسات التطبيقية أن نظرية ريفاتير تُعد منهجاً فعالاً في تحليل الشعر العربي الحديث، حيث تسعى إلى الربط بين النص الأدبي والموسوعة الثقافية التي ينتمي إليها .ومن هنا، يختار الباحث هذه النظرية لتحليل شعر رابعة العدوية، لأن النص الصوفي بطبعه نص غير مباشر، يعتمد على الرمز والإشارة بدلاً من التصريح، ويتميز بكثافة سيميائية عالية تتطلب أدوات تحليلية قادرة على تفكيك طبقاته الدلالية.

الدراسات السابقة

أولى الباحثون في مجال التصوف والأدب العربي اهتماماً كبيراً لشعر رابعة العدوية وتجربتها الروحية. ومن أبرز الدراسات التي شكلت ركائز في هذا المجال:

دراسة مارغريت سميث (سميث، ١٩٢٨) بعنوان ."Rabi'a the Mystic and Her Fellow-Saints in Islam" قدمت سميث في هذا البحث دراسة تاريخية وتوثيقية مفصلة لسيرة رابعة العدوية، وركزت على تحليل مفهوم المحبة الإلهية وتطوره في الفكر الإسلامي المبكر، مع ترجمة وتحليل عدد من أشعارها ومواقفها الروحية. تكمن قيمة هذه الدراسة في بعدها التاريخي والمقارن، لكنها اعتمدت المنهج التاريخي اللاهوتي دون الخوض في التحليل البنيوي أو السيميائي للغة الشعرية.

دراسة عبد الرحمن بدوي (بدوي، ١٩٦٢) بعنوان "شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية". تناولت هذه الدراسة التحليل الفلسفي والروحي لتجربة رابعة، حيث عرض بدوي تطور مفهوم الحب من المستوى النفسي إلى المستوى الروحي المطلق. وعلى الرغم من العمق الفلسفي الذي قدمه بدوي في تحليل الدوافع النفسية والروحية لأشعار رابعة، إلا أن معالجته للنصوص الشعرية ظلت في إطار التفسير الموضوعاتي والتعليق الأدبي العام دون الاستناد إلى إطار سيميائي نقدي يفكك آليات إنتاج النص للدلالة.

أما على صعيد الدراسات السيميائية الحديثة، فقد استخدمت دراسة (ديكا وروهاندا، ٢٠٢٤) نظرية ريفاتير السيميائية لتحليل قصيدة "أحبك أو لا أحبك" لمحمود درويش، وتوصلت إلى أن القراءة الهيورستيكية والهيرمينوطيقية يمكن أن تكشف عن الطبقات الدلالية العميقة في النص الشعري العربي المعاصر .كما قامت دراسة (سودارماوان، ٢٠٢٢) بتحليل معلقة امرئ القيس باستخدام أدوات ريفاتير، مبرهنةً على فعالية المصفوفة والنموذج والهيبوجرام في تحليل النصوص الشعرية العربية التراثية. وعلى الرغم من هذه الجهود، يلاحظ الباحث وجود فجوة بحثية تمثلت في قلة الدراسات التي طبقت المناهج السيميائية الحديثة، وبالأخص سيميائية مايكل ريفاتير، على شعر رابعة العدوية. تبرز أهمية الدراسة الحالية في كونها تسد هذه الفجوة؛ إذ لا تكتفي ببيان المعاني الصوفية أو الخصائص البلاغية الظاهرة، بل تسعى إلى تطبيق أدوات ريفاتير الإجرائية (عدم اللياقة النحوية، القراءة الاستراتيجية، واستخراج المصفوفة والنموذج والهيبوجرام) للكشف عن الكيفية التي تتحول بها المفردات المعجمية العادية إلى نظام رمزي صوفي مكثف.

منهج البحث

تصميم البحث ونوعه تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المدعوم بأدوات التحليل السيميائي وفق نظرية مايكل ريفاتير. يهدف هذا التصميم المنهجي إلى تفكيك النصوص الشعرية وتحليلها تحليلاً مستوياتيّاً يبدأ من السطح اللغوي المباشر وصولاً إلى العمق الدلالي البنيوي. يناسب هذا المنهج طبيعة الشعر الصوفي الذي يتسم بالغموض والرمزية وتجاوز المباشرة اللغوية.

كوربوس البيانات ومصادرها تتكون مادة البحث الأساسية (الكوربوس) من مختارات شعريّة منسوبة لرابعة العدوية، تم اختيارها بعناية من المصادر التراثية الموثوقة مثل "إحياء علوم الدين" للغزالي و"حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني. ترتكز المختارات على الأبيات التي تتضمن كثافة رمزية عالية وتشمل مفاهيم صوفية محورية مثل: "حب الهوى"، "حب الاستحقاق"، "كشف الحجاب"، و"الخمر الروحية" (سودارماوان، ٢٠٢٢).

تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المدعوم بأدوات التحليل السيميائي وفق نظرية مايكل ريفاتير. يتكون كوربوس البحث من مختارات شعرية منسوبة لرابعة العدوية، تم اختيارها من المصادر التراثية الموثوقة مثل "إحياء علوم الدين" للغزالي و"حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني. ويتبع الباحث أربع خطوات إجرائية: القراءة الهيورستيكية (الاستكشافية) لرصد المعنى المحاكاتي المباشر، ثم رصد عدم اللياقة النحوية وآليات عدم المباشرة (الإبدال، التحريف، خلق المعنى)، ثم القراءة الهيرمينوطيقية (التأويلية) لإعادة قراءة الانزياحات، وأخيراً استخراج المصفوفة والنموذج والهيبوجرام.حدود البحث يقتصر هذا البحث على التحليل السيميائي لمختارات شعرية محددة لرابعة العدوية دون القضايا السردية أو التراجمية المفصلة لسيرتها الذاتية. كما يقر الباحث بالإشكالية التوثيقية التاريخية لنسبة الشعر الصوفي المبكر، ويتعامل مع النصوص المختارة كظاهرة سيميائية ممثلة لخطاب المحبة الإلهية في التراث الصوفي، بصرف النظر عن التجاذبات التاريخية حول أسانيد الرواية.

النتائج

يعرض هذا القسم نتائج التحليل السيميائي التطبيقي على مختارات من شعر رابعة العدوية، متبعاً الخطوات الإجرائية لنظرية مايكل ريفاتير. وقد اختار الباحث مقطوعتين شعريتين تمثلان ذروة التعبير عن المحبة الإلهية عند رابعة، وهما: قصيدة "أحبك حبين" (أبو نعيم الأصفهاني، 1988) وقصيدة "إني جعلتك في الفؤاد محدثي" (أبو طالب المكي، 1997). وقبل الخوض في التحليل التفصيلي، يلخص الجدولان التاليان النتائج الأساسية للتحليل، مع بيان شكل عدم المباشرة في كل بيت، والمعنى المحاكاتي المباشر (القراءة الهيورستيكية)، والدلالة التأويلية العميقة (القراءة الهيرمينوطيقية). ثم يعقب ذلك تحليل مستفيض لكل قصيدة على حدة، يُبرز المصفوفة المركزية والنموذج والمتغيرات والهيبوجرام.

جدول ١: التحليل السيميائي لقصيدة "أحبك حبين"

الرقم	البيت	شكل عدم المباشرة (Displacing Meaning)	القراءة الهيورستيكية (المعنى المباشر)	القراءة الهيرمينوطيقية (الدلالة الصوفية)
1	أحبك حبين حب الهوى / وحباً لأنك أهل لذاك	إبدال :(Displacement) نقل لفظ "الهوى" من مجال الغزل البشري إلى المجال الإلهي	حب ناتج عن الميل العاطفي والانشغال بالمحبوب	الاستغراق الكلي في الذكر ومقام الفناء في المحبة الإلهية
2	فأما الذي هو حب الهوى / فشغلي بذكرك عمن سواك	خلق المعنى :(Creation of Meaning) "شغلي بذكرك" يحول الحب من حالة وجدانية إلى فعل الذكر المستمر	الانشغال بالذكر عن كل ما سوى الله	التجرد من العلائق الدنيوية، والتوجه الكلي إلى الله
3	وأما الذي أنت أهل له / فلست أرى الكون حتى أراك	تحريف" :(Distortion) أرى الكون" ينقل الرؤية من البصر الحسي إلى البصيرة القلبية	عدم رؤية الكون إلا بعد رؤية الله	المكاشفة والمشاهدة القلبية، وفناء العالم في شهود الحق
4	فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي / ولكن لك الحمد في ذا وذاك	إبدال: نقل "الحمد" من العبد إلى الله	لا حمد للعبد في الحبين، بل الحمد كله لله	التجرد التام من دعوى الملكية، والإخلاص الخالص في المحبة

جدول ٢: التحليل السيميائي لقصيدة "إني جعلتك في الفؤاد محدثي"

الرقم	البيت	شكل عدم المباشرة (Displacing Meaning)	القراءة الهيورستيكية (المعنى المباشر)	القراءة الهيرمينوطيقية (الدلالة الصوفية)
1	إني جعلتك في الفؤاد محدثي	خلق المعنى: "محدثي" توحي بمحادثة داخلية، لا خطاب خارجي	جعلت الله محدثاً لي في قلبي	الواردات الإلهية والتجلي الداخلي (الخلوة في الجلوة)
2	وأبحت جسمي من أراد جلوسي	إبدال: "أبحت جسمي" نقل من الإباحة المادية إلى التسليم الروحي	السماح للآخرين بالجلوس معي جسدياً	الحضور الاجتماعي الظاهري مع الانقطاع الباطني لله
3	فالجسم مني للجليس مؤانس	تحريف: "مؤانس" للجليس، بينما القلب "أنيسي"	الجسم يؤانس الجليس، والقلب يؤانس الحبيب	التمييز بين مستوى الجسد ومستوى الروح في العلاقة بالله
4	وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي	خلق المعنى: "أنيسي" تخصيص القلب بالأنس	حبيب قلبي هو أنيسي في فؤادي	الأنس بالله في مقام الخلوة، والواردات الإلهية

أولاً: تحليل قصيدة "أحبك حبين"

٢. القراءة الهيورستيكية (الاستكشافية):

تبدأ القصيدة بإعلان صريح عن حب مزدوج: "أحبك حبين: حب الهوى، وحباً لأنك أهل لذاك". وعلى مستوى المعنى المباشر، يبدو الخطاب موجهاً إلى محبوب بشري، حيث يستخدم الشاعر مفردات الغزل المألوفة: "الهوى"، "الذكر"، "الرؤية"، "الحمد". غير أن هذا المعنى السطحي سرعان ما يصطدم بعلامات عدم اللياقة النحوية والدلالية، مثل قولها "فشغلي بذكرك عمن سواك"، وهو تعبير يوحي بأن المحبوب ليس بشراً عادياً، بل كيان مقدس يستحق الذكر المطلق. ثم يأتي البيت الثالث ليكشف عن استحالة الرؤية الكونية دون رؤية المحبوب: "فلست أرى الكون حتى أراك"، وهو

ما يتنافى مع منطق العشق البشري، إذ لا يمكن لمحب أن يرى الكون كله بعد رؤية محبوبه. هذا الانزياح الدلالي هو ما يسميه ريفاتير "عدم اللياقة النحوية(Ungrammaticality) "، حيث تنكسر قواعد اللغة العادية لتفتح المجال أمام تأويل أعمق.

٢. القراءة الهيرمينوطيقية (التأويلية):

عند إعادة قراءة النص في ضوء التجربة الصوفية، تتحول كل لفظة إلى رمز. فـ"الهوى" لا يعني الميل العاطفي البشري، بل يعني الاستغراق الكلي في المحبة الإلهية. و"الذكر" لا يعني مجرد التلفظ بالاسم، بل يعني حضور القلب مع الله. و"رؤية الكون" لا تعني الرؤية البصرية، بل تعني المكاشفة القلبية التي يرى بها السالك تجلي الحق في كل شيء. و"الحمد" في البيت الأخير ليس حمد العبد لنفسه، بل هو إقرار بأن كل حمد إنما يعود إلى الله وحده. وبهذا تتكشف الدلالة الصوفية العميقة: إنها محبة خالصة لا تطلب عوضاً، ولا تخشى عقاباً، بل تتجرد من كل شائبة نفعية.

٣. المصفوفة والنموذج والمتغيرات:

المصفوفة المركزية (Matrix) التي تتولد منها هذه القصيدة هي: "التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية". هذه الفكرة المجردة غير المصرح بها حرفياً هي التي تحكم بناء النص. أما النموذج (Model) الذي يجسد هذه المصفوفة على السطح اللغوي، فهو صيغة الخطاب المباشر "أحبك"، المقترنة بضمير المخاطب المخصص للذات الإلهية. ومن هذا النموذج تتفرع المتغيرات (Variants) التي تعيد إنتاج المصفوفة بأشكال بلاغية متنوعة: "حب الهوى"، "حب الاستحقاق"، "شغلي بذكرك"، "لست أرى الكون"، "لك الحمد". كل هذه المتغيرات تدور حول محور واحد: إفراد المحبوب الإلهي بالحب الخالص، ونفي أي غاية أخرى للعبادة سواه.

٤. الهيبوجرام (التناص):

يتناص النص مع نصوص سابقة، أبرزها قوله تعالى: "يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (المائدة: ٥٤)، وهي الآية التي أسست لمفهوم المحبة المتبادلة بين الخالق والمخلوق. كما يتناص مع خطاب الزهد المبكر الذي كان يقوم على الخوف من النار والطمع في الجنة، حيث جاءت رابعة لتنقل التجربة الصوفية من هذا الخطاب إلى خطاب المحبة الخالصة. ويظهر هذا التناص جلياً في رفضها لأي حمد لنفسها في البيت الأخير: "فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي، ولكن لك الحمد في ذا وذاك". فهي لا تريد ثواباً ولا تخشى عقاباً، بل تريد الله وحده.

٥. الدلالة:(Signifikansi)

تتجلى دلالة هذه القصيدة في كونها تمثل نقطة تحول في مسار التصوف الإسلامي: من زهد الخوف إلى عشق المحبة. لقد نجحت رابعة في تحويل اللغة الشعرية من وظيفتها التقريرية إلى وظيفة سيميائية مكثفة، حيث أصبحت الألفاظ العادية علامات على حقائق روحية. وهذا ما يؤكده ريفاتير عندما يقول إن الشعر لا يصف العالم، بل يخلق عالماً جديداً من الدلالات. وهكذا تصبح قصيدة "أحبك حبين" وثيقة روحية على تجربة المحبة الإلهية الخالصة، ونموذجاً للتحول السيميائي في الخطاب الصوفي.

ثانياً: تحليل قصيدة "إني جعلتك في الفؤاد محدثي"

١. القراءة الهيورستيكية (الاستكشافية):

يصف النص حالة شخص يجلس مع الناس، لكنه يستضيف في قلبه شخصاً آخر يتبادل معه الأحاديث. يقول: "إني جعلتك في الفؤاد محدثي، وأبحت جسمي من أراد جلوسي". وعلى المستوى المباشر، يبدو الخطاب موجهاً إلى حبيب بشري، حيث يفرق بين الجسد الذي يؤانس الجليس، والقلب الذي يؤانس الحبيب. غير أن هذا المعنى ينهار أمام مفارقة "محدثي"، فهي لا تعني مجرد الجلوس، بل تعني المحادثة والأنس، وهو ما لا يتحقق إلا مع كيان حاضر في القلب. ثم يأتي البيت الأخير ليؤكد هذا التمييز: "فالجسم مني للجليس مؤانس، وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي". هنا يظهر الانقسام بين مستوى الجسد ومستوى الروح، وهو انقسام يخلق انزياحاً دلالياً عن المعنى المألوف.

٣. القراءة الهيرمينوطيقية (التأويلية):

عند تأويل النص في ضوء التجربة الصوفية، يتحول "محدثي" إلى إشارة إلى الواردات الإلهية والأحاديث القلبية التي يلقيها الله في قلب السالك. و"الجسم" يصبح رمزاً للوجود الاجتماعي الظاهري، بينما "القلب" رمزاً للخلوة الباطنية مع الله. و"أبحت جسمي" لا تعني الإباحة الجسدية، بل تعني التسليم والانقطاع عن العلائق الدنيوية. وهكذا تتكشف الدلالة العميقة: إنها حالة "الخلوة في الجلوة"، حيث يكون السالك حاضراً مع الناس بجسده، لكنه منقطع عنهم بقلبه، متصل بالله في سرّه. وهذا ما يعبر عنه الصوفية بـ"الواردات الإلهية" و"التجلي الداخلي."

٣. المصفوفة والنموذج والمتغيرات:

المصفوفة المركزية في هذه القصيدة هي أيضاً "التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية"، لكنها تظهر هنا بصيغة مغايرة: "الانقطاع الباطني مع الحضور الظاهري". أما النموذج، فهو ثنائية "الجسم/القلب" التي تحكم بنية النص. ومن هذا النموذج تتفرع المتغيرات: "محدثي"، "أبحت جسمي"، "الجسم مؤانس"، "حبيب قلبي أنيسي". كلها متغيرات تعيد إنتاج المصفوفة عبر التأكيد على أن المحبة الإلهية تستلزم تجاوز المستوى المادي إلى المستوى الروحي.

٤. الهيبوجرام (التناص):

يتناص النص مع مفاهيم صوفية سابقة، مثل مفهوم "الخلوة في الجلوة" الذي طوره الصوفية الأوائل، ومفهوم "الأنس بالله" الذي ورد في القرآن الكريم: "أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد: ٢٨). كما يتناص مع قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني". وهذا التناص يمنح النص عمقاً روحياً يتجاوز حدود التجربة الفردية إلى التراث الصوفي الإسلامي.

٥. الدلالة:(Signifikansi)

تكمن دلالة هذه القصيدة في أنها تقدم نموذجاً تطبيقياً لـ"الخلوة في الجلوة"، وهو مفهوم صوفي دقيق يعني أن يكون السالك مع الناس ظاهراً، ومع الله باطناً. وقد نجحت رابعة في التعبير عن هذه الحالة بلغة شعرية مكثفة، تعتمد على التضاد بين "الجسم" و"القلب"، و"الجليس" و"الأنيس". وهكذا تساهم القصيدة في ترسيخ مفهوم المحبة الإلهية الخالصة، وتؤكد أن اللغة الصوفية لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال تجاوز المعنى المباشر إلى الدلالة الرمزية.

المناقشة

يُفرد هذا القسم لمناقشة النتائج التي أفرزها التحليل المستوياتي للنصوص، وربطها بالمفاهيم المركزية لنظرية ريفاتير (المصفوفة، النموذج، المتغيرات، الهيبوجرام)، مع تسليط الضوء على تطور الرمز الصوفي ومقارنة هذه القراءة مع الدراسات السابقة. وقد اعتمد البحث في بنيته النظرية على كتاب مايكل ريفاتير (ريفاتير، ١٩٧٨، ص. ١٩)كمصدر رئيس، وعلى النصوص الشعرية المنسوبة إلى رابعة العدوية كما وردت في المصادر التراثية، ومنها ما جمعه وحققه عبد الرحمن بدوي في كتابه شهيدة العشق الإلهي: (بدوي، ١٩٦٢) ، فضلاً عن مصادر كلاسيكية أخرى مثل حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني وإحياء علوم الدين للغزالي وقوت القلوب لأبي طالب المكي.

١. البنية التوليدية للنص: المصفوفة والنموذج والمتغيرات

يؤكد ريفاتير أن النص الشعري مهما تعددت صوره وأبياته، فإنه يعود في بنيته العميقة إلى نواة دلالية واحدة غير مصرح بها حرفياً، تسمى المصفوفة .(Matrix) وبناءً على التحليل الاسترجاعي لأشعار رابعة، نرى أن المصفوفة المركزية التي تتولد منها جميع هذه الأبيات هي: التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية». هذه المصفوفة هي الفكرة المجردة التي تحكمت في بناء المعجم الشعري لرابعة، حيث سعت إلى تخليص العبادة من أية شوائب نفعية.

ولكي تظهر هذه المصفوفة المجردة على السطح اللغوي، فإنها تتجسد في نموذج (Model) أولي. في القصيدة الأولى، يتمثل النموذج في صيغة الخطاب المباشر «أُحِبُّكَ» المقترن بضمير المخاطب المخصص للذات الإلهية. ومن هذا النموذج، تتفرع المتغيرات (Variants) التي تعيد إنتاج المصفوفة بأشكال بلاغية متنوعة. فقولها حب الهوى، وحب الاستحقاق، وشغلي بذكرك، ولست أرى الكون، ولك الحمد، كلها متغيرات نصية تدور حول محور واحد: إفراد المحبوب الإلهي بالحب الخالص، ونفي أي غاية أخرى للعبادة سواه. وفي القصيدة الثانية، يتمثل النموذج في ثنائية الجسم/القلب، حيث يتفرع عنها متغيرات مثل محدثي، وأبحت جسمي، والجسم مؤانس، وحبيب قلبي أنيسي، وكلها تعيد إنتاج المصفوفة نفسها عبر التأكيد على أن المحبة الإلهية تستلزم تجاوز المستوى المادي إلى المستوى الروحي.

وتتفق هذه النتيجة مع ما ذهب إليه ريفاتير من أن الشعر لا يصف العالم، بل يخلق عالماً جديداً من الدلالات، وأن المصفوفة لا تظهر صراحة في النص، بل تُستنتج من خلال القراءة التأويلية. وهذا ما يؤكد صلاحية النظرية الريفاتيرية لتحليل النص الصوفي، لأنه نص يقوم بطبيعته على عدم المباشرة والرمز.

٢.مقارنة النتائج بالدراسات السابقة

أ) دراسة مارغريت سميث(١٩٢٧)

قدمت سميث في كتابها Rabi'a the Mystic and Her Fellow-Saints in Islam (سميث، ١٩٢٨)دراسة تاريخية وتوثيقية مفصلة لسيرة رابعة العدوية، وركزت على تحليل مفهوم المحبة الإلهية وتطوره في الفكر الإسلامي المبكر. وقد توصلت دراستنا إلى نتائج تتفق مع استنتاج سميث الأساسي، وهو أن رابعة مثلت نقطة تحول من الزهد القائم على الخوف إلى العشق الإلهي الخالص. غير أن دراستنا تتجاوز المنهج التاريخي اللاهوتي الذي اعتمدته سميث، إذ لا تكتفي بوصف الظاهرة الروحية، بل تسعى إلى تفكيك الآليات اللغوية والسيميائية التي أنتجت هذه الظاهرة. فبينما ركزت سميث على «ماذا قالت رابعة»، يركز بحثنا على «كيف قالت رابعة»، أي على الكيفية التي تحولت بها المفردات المعجمية العادية إلى نظام رمزي صوفي مكثف. وهذا ما يشكل إضافة نوعية للدراسة السابقة.

ب) دراسة عبد الرحمن بدوي (١٩٦٢)

تناول بدوي في كتابه شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية (بدوي، ١٩٦٢)التحليل الفلسفي والروحي لتجربة رابعة، وعرض تطور مفهوم الحب من المستوى النفسي إلى المستوى الروحي المطلق. وقد استفاد بحثنا من جمعه وتحقيقه للنصوص الشعرية، غير أن معالجة بدوي للنصوص ظلت في إطار التفسير الموضوعاتي والتعليق الأدبي العام. أما دراستنا الحالية، فإنها تقدم قراءة سيميائية منهجية تستند إلى أدوات ريفاتير الإجرائية، فتكشف عن المصفوفة والنموذج والهيبوجرام، وهو ما لم تتضمنه دراسة بدوي. وبهذا تسد الدراسة الحالية فجوة منهجية في تحليل شعر رابعة.

ج) دراسة أن ماري شيميل (١٩٧٥)

خصصت شيميل في كتابها Mystical Dimensions of Islam جزءاً كبيراً لبحث دور رابعة في تحويل مسار التصوف الإسلامي من الزهد القائم على الخوف إلى العشق الإلهي، وسلطت الضوء على الرموز الصوفية المبكرة التي ظهرت في أشعارها. وقد اعتمدت شيميل المنهج الفينومينولوجي والتاريخي في مقاربة النصوص، مما جعل دراستها تركز على الظاهرة الروحية ككل وليس على البنية اللغوية الشعرية بحد ذاتها. وتأتي دراستنا لتكمل هذا الجهد من خلال تقديم تحليل سيميائي دقيق يوضح كيف تتحول هذه الرموز داخل النص الشعري، وكيف تشكل شبكة دلالية متكاملة تنتج المعنى الصوفي.

د) الدراسات السيميائية الحديثة

استخدمت دراسة (ديكا وروهاندا، ٢٠٢٤) نظرية ريفاتير السيميائية لتحليل قصيدة أحبك أو لا أحبكلمحمود درويش، وتوصلت إلى أن القراءة الهيورستيكية والهيرمينوطيقية يمكن أن تكشف عن الطبقات الدلالية العميقة في النص الشعري العربي المعاصر. كما قامت دراسة (سودارماوان، ٢٠٢٢) بتحليل معلقة امرئ القيس باستخدام أدوات ريفاتير، مبرهنةً على فعالية المصفوفة والنموذج والهيبوجرام في تحليل النصوص الشعرية العربية التراثية.

وتتفق دراستنا مع هاتين الدراستين في النتيجة العامة، وهي أن نظرية ريفاتير أداة فعالة في تحليل الشعر العربي، سواء كان حديثاً أو تراثياً. غير أن دراستنا تتميز بكونها تطبق هذه الأدوات على نص صوفي مبكر، وهو ما لم تفعله الدراسات السابقة. فالنص الصوفي يتميز بكثافة رمزية عالية وانزياحات دلالية معقدة، مما يجعله مادة خصبة للتحليل السيميائي. وقد أثبتت دراستنا أن المصفوفة المركزية «التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية» تتولد منها جميع المتغيرات النصية، وأن الهيبوجرامات القرآنية والحديثية تشكل خلفية تناصية لا يمكن إغفالها.

٣.تطور الرمز الصوفي في ضوء النتائج

كشفت الدراسة عن ثلاث آليات أساسية لعدم المباشرة في شعر رابعة: الإبدال(Displacement) ، والتحريف (Distortion)، وخلق المعنى .(Creation of Meaning) وقد وظفت رابعة هذه الآليات لتحويل مفردات الغزل البشري إلى رموز صوفية. فالخمر في شعرها لا تعني الشراب المحرم، بل ترمز إلى النشوة الروحية الناتجة عن المحبة الإلهية. و«الحجاب» لا يعني الستر المادي، بل يعني حجب النفس والأنانية عن مشاهدة الحق. و«الهوى» لا يعني الميل العاطفي البشري، بل يعني الاستغراق الكلي في الذكر والفناء في المحبوب.

وهذا التحول الدلالي هو ما يجعل من لغة رابعة لغة مفارقة للعادة، وهي لغة لا يمكن فهمها من خلال المقاربات اللغوية التقليدية التي تقف عند حدود النحو والبلاغة المعيارية. وبهذا تتأكد الحاجة إلى المنهج السيميائي، وبالأخص نظرية ريفاتير، لتحليل هذه النصوص. وقد أظهرت النتائج أن المصفوفة المركزية التي تحكم النص هي «التجرد التام والإخلاص الخالص في المحبة الإلهية»، وهي فكرة تتجسد في نموذج الخطاب المباشر مع الذات الإلهية، وتتفرع عنها متغيرات بلاغية متنوعة.

٤. الهيبوجرام والتناص

يتناص شعر رابعة مع نصوص قرآنية وحديثية سابقة، وهو ما يسميه ريفاتير الهيبوجرام .(Hypogram) ومن أبرز هذه النصوص قوله تعالى: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ (المائدة: ٥٤)، وقوله: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد: ٢٨)، والحديث القدسي: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. هذه النصوص تشكل الخلفية الثقافية والدينية التي يتناص معها شعر رابعة، مما يمنحه عمقاً روحياً يتجاوز حدود التجربة الفردية إلى التراث الصوفي الإسلامي.

وقد لاحظ الباحث أن الهيبوجرامات في شعر رابعة لا تقتصر على النصوص الدينية، بل تمتد إلى خطاب الزهد المبكر الذي كان يقوم على الخوف من النار والطمع في الجنة. فقد جاءت رابعة لتنقل هذا الخطاب من ثنائية الخوف والطمع إلى محبة خالصة لا تطلب عوضاً ولا تخشى عقاباً. وهذا ما يؤكده البيت الأخير في قصيدتها الأولى: فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي، ولكن لك الحمد في ذا وذاك». فهي لا تريد ثواباً ولا تخشى عقاباً، بل تريد الله وحده.

٥. الدلالة (Signifikansi) وإسهام الدراسة

تتجلى دلالة هذه الدراسة في كونها تقدم قراءة سيميائية جديدة لشعر رابعة العدوية، وتكشف عن الكيفية التي تتحول بها اللغة من وظيفتها التقريرية إلى وظيفة سيميائية مكثفة. وقد أثبتت الدراسة أن نظرية ريفاتير، على الرغم من أنها طورت في سياق الأدب الغربي، قابلة للتطبيق على النص الصوفي العربي، بل إنها تكشف عن طبقات دلالية لا تظهر في القراءات التقليدية.

ومن هنا، يمكن القول إن الإسهام الأساسي لهذه الدراسة يتمثل في ثلاثة أمور: أولاً، سد الفجوة البحثية في الدراسات السيميائية لشعر رابعة العدوية. ثانياً، تقديم تحليل تطبيقي متكامل لنظرية ريفاتير على نص صوفي مبكر، وهو ما يثري الدراسات السيميائية العربية. ثالثاً، إبراز البعد الجمالي والمعرفي للغة الصوفية، وإظهار أن الرمز الصوفي ليس مجرد زخرفة بلاغية، بل هو ضرورة معرفية للتعبير عن تجربة تتجاوز حدود اللغة العادية.

وبهذا الطرح السيميائي، يتبين أن رابعة العدوية لم تؤسس فقط لمرحلة جديدة في تاريخ التصوف العملي بنقلها الإياد من مقام الخوف إلى مقام الحب، بل أسست أيضاً لـ«هيبوجرام» (نص بؤري) شعري رمزي يستلهم منه كبار المتصوفة لاحقاً لأفهامهم الإشارية. إن تطبيق نظرية ريفاتير أثبت فاعليته العالية في تفكيك لغة الشعر الصوفي، مؤكداً أن المعنى الحقيقي للنص الصوفي لا يمكن أن يُفهم إلا من خلال تجاوز الفجوات والانزياحات.

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى استنطاق الرموز الصوفية الكامنة في أشعار رابعة العدوية من خلال تطبيق المقاربة السيميائية لمايكل ريفاتير، متجاوزةً بذلك القراءات السطحية التي تقف عند حدود المعنى المعجمي المباشر. وقد أظهرت نتائج التحليل عبر مراحله الأربع (القراءة الاستكشافية، انزياح المعنى، القراءة التأويلية، واستخراج المصفوفة والنموذج) أن لغة رابعة الشعرية لم تكن مجرد بوح عاطفي عفوّي، بل كانت نظاماً لغوياً محكماً يعتمد على عدم المباشرة (المحاكاة) لبناء عالم دلالي جديد (السميوزيس).

لقد تعمدت رابعة استخدام مفردات تنتمي إلى قاموس الحياة اليومية والغزل البشري مثل الهوى، محدثي، والحجاب، لكنها أحدثت فيها صدماً دلالياً وعدم لياقة نحوية مقصودة. هذا الانزياح أجبر المتلقي على هجر التفسير الحرفي المادي، والانتقال نحو تأويل روحي يتناسب مع جلال التجربة الصوفية. وتوصل البحث إلى أن المصفوفة المركزية (Matrix) التي تتولد منها نصوصها الشعرية تتمحور حول فكرة الإخلاص التام والتجرد الخالص في المحبة الإلهية، وهي محبة لا تطلب عوضاً ولا تخشى عقاباً، بل تقصد وجه المحبوب لذاته.

بهذا الطرح السيميائي، يتبين أن رابعة العدوية لم تؤسس فقط لمرحلة جديدة في تاريخ التصوف العملي بنقلها الإياد من مقام الخوف إلى مقام الحب، بل أسست أيضاً لهيبوجرام (نص بؤري) شعري رمزي يستلهم منه كبار المتصوفة لاحقاً لأفهامهم الإشارية. إن تطبيق نظرية ريفاتير أثبت فاعليته العالية في تفكيك لغة الشعر الصوفي، مؤكداً أن المعنى الحقيقي للنص الصوفي لا يمكن أن يُفهم إلا من خلال تجاوز الفجوات والانزياحات. وبناءً على ما سبق، يوصي الباحث بضرورة إدراج النصوص الصوفية المبكرة ضمن الدراسات السيميائية العربية، لما تحمله من طاقات دلالية هائلة تتجاوز حدود الزمان والمكان.

المراجع

المراجع العربية:

الأصفهاني، أبو نعيم .(1988) .*حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*)ج. ٨ .(بيروت: دار الكتب العلمية .

بدوي، ع. ر .(1962) .*شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية* .مكتبة النهضة المصرية.

الغزالي، أ. ح .(2005) .*إحياء علوم الدين* .دار ابن حزم.

المكي، أ. ط. (1936) .*قوت القلوب* (ج. ٢). دار الكتب العلمية.

المراجع الأجنبية:

Dika, R., & Rohanda. (2024). Analisis semiotika Riffaterre pada Syi'ir 'Aḥibbu ka aw lā Aḥibbuka' karya Mahmoud Darwish. *Ajamiy: Jurnal Bahasa dan Sastra Arab, 13*(2), 482–500.

Riffaterre, M. (1978). *Semiotics of poetry*. Indiana University Press.

Smith, M. (1928). *Rabi'a the mystic and her fellow-saints in Islam*. Cambridge University Press.

Sudarmawan. (2022). Makna pada muqaddimah thalaliyyah dalam Al-Mu'allaqat karya Imru' al-Qays (Analisis semiotik Michael Riffaterre). *Middle Eastern Culture & Religion Issues, 1*(1), 9–28.